

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة باتنة 1

كلية الحقوق والعلوم السياسية

قسم القانون

مخبر الأبحاث والدراسات متعدد التخصصات في القانون، التراث والتاريخ

الملتقى الوطني

" رواد العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية "

الاسم واللقب: أمينة مولوة

الرتبة العلمية: دكتوراه ل م د

الجامعة: يحي فارس - المدية - الجزائر

التخصص: الدولة العثمانية

عنوان المقالة: اسهامات الأطباء الأجانب في تطوير الميدان الصحي في الجزائر خلال العهد العثماني.

محور البحث (04): التأثير والتأثر بين العالم الإسلامي والعالم الغربي في المجال الصحي.

رقم الهاتف: 0658242545

aminamouloua2006@gmail.com

المقدمة:

تُعتبر الممارسة الطبية من أهم الأنشطة التي اهتم بها الانسان منذ القدم، ولم يكن الجزائريون بمنأى عن ذلك؛ إذ تعود ممارسة الطب إلى فترات قديمة، وإن كانت الغلبة فيها إلى سيطرة المعتقدات الدينية والممارسة الشعبية التقليدية كالتداوي بالأعشاب وأعضاء الحيوانات وغيرها، لتعرف الممارسة الطبية تطوراً تدريجياً تبعاً للمراحل

التاريخية التي مرت بها الجزائر، ولعلّ أبرزها الفترة العثمانية التي تنوعت فيها المصادر الطبية وشهدت تطوراً ملحوظاً مع دخول الأتراك العثمانيين؛ حيث وُجد الطب الشعبي التقليدي، طب الأتراك، وطب الأجانب الأوروبيين.

وقد لعب الأطباء الأجانب دوراً لا يستهان به في الارتقاء بالمجال الصحي، فقد وجد العنصر الأوروبي الوافد إلى الجزائر إما عن طريق الرحلة أو الأسر أو بطلب من الحكام أنفسهم؛ إذ لم تقتصر العلاقة بين الطرفين على الحروب والمعاهدات بل شملت أيضاً التفاعل بين أطباف المجتمع، وهو ما يدل على انفتاح المجتمع الجزائري وتسامحه. بناءً على ذلك، تم طرح التساؤلات التالية: ما مدى إسهام الأطباء الأجانب في تطوير النظام الصحي في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني؟ من هم أبرز الأطباء؟ وفيما تجلت آثارهم؟

1. تطور الممارسة الطبية في الجزائر قبل العهد العثماني:

عرفت بلاد المغرب العربي عامة، والجزائر بشكل خاص، عدة أزمات وبائية عبر تاريخها الحديث، كانت تظهر بصفة دورية، كل خمس عشرة سنة أو كل خمس وعشرين سنة¹، وبذلك أصبحت المنطقة مليئة بمختلف الأوبئة والأمراض، الأمر الذي ساهم في ظهور الممارسة الطبية التي تعتبر من أهم الأنشطة التي قام بها الانسان منذ القدم، في شمال إفريقيا عموماً والجزائر على وجه الخصوص. وفي الجزائر تعود ممارسة الطب إلى عصور قديمة وتطورت بالموازاة مع التطورات التاريخية والعلمية التي حدثت في كل فترة². ففي العهد الروماني في شمال إفريقيا والمغرب الأوسط ارتبطت الممارسة الطبية بالمعتقدات الدينية التي كانت سائدة؛ حيث ارتبط تفسيرهم لأسباب المرض بالظواهر الكونية وأنه عقاب من الآلهة مثل إله الصحة الإله أشمون، فكان الاعتقاد أن طريقة العلاج والشفاء تكمن في استعطاف الآلهة والتقرب إليها بتقديم القرابين وبالتالي تحفظ سلامة الصحة والفرد³.

ومرور الزمن، عرفت ممارسة الطب تطوراً بما في ذلك مهنة الطبيب خاصةً في عهد الوندال والبيزنطيين، وبعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، انتشر الطب النبوي الذي اشتهر به ابن سينا وابن رشد وتم اعتماد الأدوية على طرق عملية عكس ما كان سائداً في السابق، كما وفد العديد من الأطباء العرب والمسلمين من مختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي مثل إسحاق بن عمران الذي جاء من بغداد، وإسحاق بن سليمان الإسرائيلي. وفي عهد الحماديين تطور كل من الطب وعلم الصيدلة وصناعة الأدوية، بفضل جهود العديد من الأطباء مثل أبو جعفر

¹ - عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقارنة اجتماعية - اقتصادية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، ج 01، جامعة الجزائر، الجزائر، 200-2001م، ص 61.

² - عثمان بوحجرة، الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني 1519-1830م (مقاربة اجتماعية)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران 01، 2014-2015م، ص 02.

³ - عبد الكريم مجّد، "تطور الممارسة الطبية وأشهر الأطباء المحليين والأجانب 1830-1954م"، عصور، مج: 22، ع: 02، 2023م، ص

البدوخ، ليشهد المغرب الأوسط في عهد الموحدين حركة علمية واسعة شملت الطب والصيدلة؛ حيث أصبحت بجاية وتلمسان مركزاً للإشعاع العلمي ومركز للعلماء مثل أبو إسحاق الداني من بجاية. إلى جانب عدد من الأطباء اليهود الذين ساهموا بدورهم في تطوير الممارسة الطبية مثل الطبيب أبو عبد الله محمد بن يحيى والطبيب أبي المليلح وغيرهم، إضافة إلى الأطباء الذين وفدوا إلى المغرب الأوسط من الأندلس خاصة مع نهاية القرن 15م. لتشهد المنظومة الصحية تطوراً مع وصول العثمانيين إلى الجزائر منذ بداية القرن 16م؛ حيث توافد العديد من الأطباء إلى الإيالة، وبنيت العديد من المستشفيات على يد العثمانيين والأجانب¹.

2. لمحة عن الوضع الصحي في الجزائر خلال العهد العثماني:

اتفقت غالبية المصادر والدراسات التاريخية على أنّ الجزائر حظيت بمناخ صحي ملائم بفضل طبيعتها ومناخها المعتدل، لذلك كانت الأمراض قليلة ونادرة، باستثناء المناطق التي تحاذي المستنقعات، وهي أمراض موسمية تصيب الأطفال فقط²، وقد أشار الدون ديغو دي هايدو Diego De Haëdo (1555-1613م) بأنّ البلاد عمومًا كانت خالية من الأمراض، باستثناء الرمد الذي ينتشر في الربيع وبداية الخريف خصوصًا بين الأطفال. كما أنّ الطاعون يظهر كل عشر أو اثني عشرة أو خمس عشرة سنة، وغالبًا يأتي من الخارج لأنّ ميناء الجزائر يستقبل سفنًا من مختلف أنحاء العالم، ومن جهة أخرى فإنّ الأتراك العثمانيين والسكان المحليين لا يتخذون أي احتياطات ضد مختلف الأمراض، فهم يقولون إنه لا فائدة من الهرب مما قدره الله³، وقد عانت إيالة الجزائر من انتشار العديد من الأوبئة والجوائح المعدية والقاتلة، التي تسببت في وفاة الآلاف من السكان. وكانت تأتي من مناطق مختلفة كآسيا الوسطى والعراق، والجزيرة العربية والأناضول، ووادي النيل، وكان انتقالها في الغالب نتيجة للحركات والتنقلات خاصة رحلات الحج⁴.

ومن أخطر الأوبئة التي عرفتها إيالة نجد: وباء الطاعون الذي أدى إلى وفاة العديد من سكان المدن والأرياف، ناهيك عن الخسائر المادية الأخرى كهلاك الماشية، ويشير دوغرامون De Gramont إلى أنّ الوباء ضرب الجزائر سنة 1535م؛ حيث انتقل إليها عن طريق إحدى السفن الراسية بميناء المدينة، وكانت محملة بالقمح فهلك منه

¹ - محمد، المرجع السابق، ص 264-265.

² - جليل بن عتو، قوراري زهاد، "الأوضاع المعيشية والصحية والديموغرافية في الجزائر العثمانية من خلال المصادر الغربية"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج: 13، ع: 01، 2022م، ص 640.

³ - Don Diego De Haëdo, *Topographie et histoire générale d'Alger*, Traduit de l'espagnol par: Dr. Monnereau, A. Berbrugger, Éditions Bouchène, Algérie, 1870, p209.

⁴ - Tayeb Guedim, *History of epidemics and preventive medicine in Algeria during the modern and contemporary period: Infectious diseases and quarantine as a model*, International Journal of Health Sciences, 8, 2024, p379.

الكثير من الناس، ويشير باربروجير إلى وباء 1552م كأقدم وباء عرفته الإيالة، ويقال أنه انتقل إليها عن طريق أسطول صالح ريس القادم من اسطنبول، وحسب مارشيكافان وباء 1553م قد أودى بحياة 9000 شخص، وقد أطلق عليه العرب تسمية وباء Bachi Banek بانق باشي، كما شهدت الجزائر موجة أخرى استمرت من 1555 إلى 1557م راح ضحيتها صالح ريس، ليستمر الوباء عبر سنوات متلاحقة في القرن 17م¹. وتعد قسنطينة وما جاورها من أكثر المناطق تضررا من الطاعون منذ سنة 1552م، وتلتها جوائح سنوات 1582م، 1602م، 1622م، 1644م، 1648م، وطاعون 1650م الذي فتك بالجزائريين فتكا رهيباً وقد تحدث عنه أبو سالم العياشي بنوع من الإسهاب في رحلته بالمناطق التي مر بها بالجزائر عام 1649-1650م بقوله: "...وفي الغد جئنا لبلد سيدي عقبة وتحققنا الوباء فيه وفي البلاد التي في أطرافه وفي بسكرة ولم ندخل لزيارته وبتنا بينه وبين بسكرة..."².

ويذكر دي غرامون أنّ الجزائر عرفت الطاعون عام 1724م مصاحباً ثورة بلاد القبائل محدثاً المجاعة، ثم الطاعون الرهيب عام 1740م في مدينة الجزائر، أين يرجع مصدره لسفينة فرنسية قادمة من الإسكندرية، وكان يضرب الجزائر بين أبريل ويستمر حتى جوان وبهذا يشبه في أوقاته طاعون مصر³، كما انتشر وباء الطاعون عبر 21 سنة في القرن 18م⁴، وقد تسبب طاعون 1793-1804م في وفاة 12,000 شخص بمدينة الجزائر والمناطق الريفية. وفي عام 1797م كان الوباء يحصد من 20 إلى 25 ضحية يومياً بالعاصمة. كما انتشر الوباء في قسنطينة عام 1804م ومصدره سفينة تركية جاءت من إزمير وصاحبته الحمى الصفراء، كما عرفت الإيالة وباء 1816م الذي كان مصدره البلقان ودام سبع سنين⁵، وتسبب في وفاة أكثر من 13,330 شخصاً في مدينة الجزائر وحدها وأثر بشدة على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في البلاد⁶.

¹ - عبلة صغير، الوضع الصحي والممارسات الطبية في الجزائر العثمانية: دراسة تاريخية على ضوء الكتابات الغربية، ضمن: الطب والخدمات الصحية بالعالم الإسلامي عبر العصور، ج: 02، المركز الديمقراطي العربي، برلين، ألمانيا، 2023م، ص 145.

² - سعاد آل سيد الشيخ، "الأوضاع الصحية وانعكاساتها على المجتمع الريفي اجتماعيا واقتصاديا بالجزائر العثمانية"، مجلة دراسات تاريخية، مج: 09، ع: 01، 2021م، ص 93.

³ - De Grammont Henri Delmas, **Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830)**, Ernest Leroux Editeur, Paris, France, 1887, pp 279-282.

⁴ - صغير، المرجع السابق، ص 145.

⁵ - سهام بومير، أمينة مولوة، الأوبئة في الدولة العثمانية خلال القرنين 18م و 19م من الأزمة إلى المواجهة، ضمن كتاب: الأوبئة عبر التاريخ، د/ط، دار خيال للنشر والترجمة، برج بوغريج، الجزائر، 2021م، ص 46.

⁶ - Guedim, op.cit, p379.

إضافةً إلى وباء الطاعون، انتشرت أمراض أخرى مثل الكزاز، وحمى المستنقعات (المالاريا)، الذي يُعد من أشدّ الأمراض المعدية سرعةً في الانتشار، كما ظهر مرض الجدري الذي كان يضرب البلاد مرة كل أربع سنوات، وتم تسجيل موجة منه عام 1509م عندما ضرب الحامية الإسبانية ببجاية، وآخر لا يقول خطورة عن سابقه سنة 1560م¹، وخلال سنتي 1803 و1804م أودى الجدري بحياة ما بين 2000 و3000 شخص في مدينة الجزائر وحدها، ويرجح بعض المؤرخين أنّ دخوله إلى المنطقة كان بفعل التبادل التجاري مع إيطاليا من جهة، أو انتقال العدوى من إسبانيا من جهة أخرى، ولم تقتصر خطورته على التسبب في الوفاة بل كان يؤدي أيضاً إلى إعاقات دائمة مثل العمى أو الصمم. بالإضافة إلى ذلك شهدت الجزائر داء التيفوس المستوطن المعروف باسم تيفوس الجرذان الذي تميّز بأعراض مثل السعال الجاف، وأشار بعض المؤرخين إلى أنه كان يتكرر تقريباً كل عشرين سنة، وكانت أسبابه تعود أساساً إلى تلوث البيئة، كما انتشرت عدوى وباء السلّ، وقد عانى الناس سنة 1782م من صعوبة التنفس وسعال مستمر لأسابيع، نتيجة التلوث البيئي وسوء تصريف مياه الصرف الصحي وغياب الوقاية، إلى جانب ضعف اهتمام السلطات العثمانية بالقطاع الصحي عمومًا².

وفي نفس السياق؛ ازدادت الأوضاع سوءاً في إيالة الجزائر العثمانية بسبب تزامن الأوبئة مع المجاعات والكوارث الطبيعية، مما أدى إلى تراجع النمو الديموغرافي وتدهور الاقتصاد خلال القرنين 17 و18م، فقد تسبب وباء 1740م المصحوب بمجاعة 1738م في وفاة مئات الأشخاص يوميًا، وأضر بسكان بسكرة وضواحيها، كما أدى وباء 1787م إلى هلاك عدد كبير من الحرفيين في صناعة الأحزمة الحريرية، فتراجع إنتاج الحرير، بينما خلف وباء 1786-1788م نحو 200 إلى 240 وفاة يوميًا، وقد وصل وباء 1793م عبر بحارة إسطنبول متسببًا في نحو 12 ألف وفاة³.

كما شهدت الجزائر توالي المجاعات بسبب الجفاف، نظرًا لتذبذب سقوط الأمطار في بعض المواسم، وصاحب ذلك غزو الجراد من المناطق الجنوبية، فلحق بذلك أضرار كبيرة بالمحاصيل الزراعية مثل ما حدث في القرنين 18 و19م⁴. فقد أدى مرور أسراب الجراد إلى حدوث المجاعات بسبب نقص الغذاء⁵، وأوردت المصادر أكثر المجاعات التي تعرضت لها البلاد الجزائرية مثل مجاعة 1580-1579م و1752م التي استمرت أربع سنوات التي

¹ - عبد القادر قندوز، "الوضع الصحي لسكان الجزائر في العهد العثماني"، مجلة الخلدونية، مج: 07، ع: 01، 2014م، ص 271.

² - Guedim, op.cit, pp379- 380.

³ - صغير، المرجع السابق، ص 146.

⁴ - بن عتو، زهاد، المرجع السابق، ص ص 246-247.

⁵ - خير الدين سعدي، الأوبئة بالجزائر العثمانية خلال القرن الثامن عشر والثالث الأول من القرن التاسع عشر، ط01، مركز التاريخ العربي للنشر، إسطنبول، تركيا، 1441هـ/ 2020م، ص 410.

أدت إلى هلاك العديد من الجزائريين، هذا وقد توالى المجاعات على مدار القرنين 18 و19م، ونتج عنها غلاء الأسعار وانتشار الفوضى والاضطرابات¹، فعلى سبيل المثال أملت بالجزائر سنة 1718م مصيبة القحط والمجاعة وخلفت آثارا رهيبية حتى ذكر بأنه قد بيع لحم البشر في الأسواق من شدة الجوع²، وقيل عن مجاعة 1778-1779م أنّ الناس كانوا يمتنون بالملئ في شوارع الجزائر وقسنطينة التي كان من أسبابها حملات الجراد مع الوباء³.

وفي سنتي 1804-1805م وقعت مجاعة شديدة بالشرق الجزائري وأزمة قحط في قسنطينة، وقد ذكر صالح العنترى ما يلي: "... زمان الأتراك وقعت مجاعة شديدة وقحط وهول أضر بلد قسنطينة ووطنها، ودام الحال كذلك عليهم مدة ثلاث سنين متوالية، والوالي في ذلك الزمان على البلد عثمان. سببها الجائحة بأكله واعدم حصاده في جهات كثيرة سيما ناحية القبلة يقصد الجنوب وأعراشها كالحرآكتة والنمامشة وأولاد يحيى بن طالب والخرارب وغيرهم ولم تنجو من ذلك إلا ناحية السواحل والمناطق الصحراوية فإن زرعها لم يقع فيه ضرر كبير..."⁴، في حين دفعت مجاعة 1819-1818م بالداي حسين إلى شراء ما يُقارب 50 ألف صاع من الحبوب من موانئ البحر الأسود لتغطية استهلاك مدينة الجزائر⁵.

وفي نفس السياق؛ تعرضت الجزائر كذلك إلى الفيضانات التي كانت تكتسح سهول متيجة، مثل فيضان 1675م بسبب ارتفاع منسوب المياه في الأنهار، وفي سنة 1709م اندلع حريق بالعديد من البساتين⁶، كما شهدت المراسي هبوب عواصف هوجاء أدت إلى إتلاف السفن الراسية خاصة في القرن 18م⁷. كما شهدت الإيالة حدوث سلسلة من الهزات العنيفة التي تسببت في تخریب وهدم العديد من المدن وخسائر معتبرة في الأرواح، هذا وتشير العديد من المصادر أنّ وباء الطاعون علاقة بالزلازل، فذكر دي غرامون بأنّ الأوبئة المستمرة في مدن الجزائر، قسنطينة وبسكرة نجمت عن زلزال 1639م⁸، ومن أخطر الزلازل التي شهدتها الإيالة نجد الزلزال الذي ضرب مدينة الجزائر والمدية عام 1632م وأهلك أغلب سكانها، وزلزال مدينة الجزائر وضواحيها بين عامي 1639م و1676م، ومن أهم الزلازل نجد زلزال 1716م الذي ضرب مدن الجزائر وشرشال وجباية وأدى إلى

¹ - بن عتو، زهاد، المرجع السابق، ص ص 246-247.

² - سعدي، المرجع السابق، ص 412.

³ - محمد بن جبور، "الوضع الصحي بالجزائر في أواخر العهد العثماني"، المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، مج: 06، ع: 02، 2014م، ص 18.

⁴ - صالح العنترى، مجاعات قسنطينة، تح: رابح بونار، د/ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1394هـ/1974م، ص 28.

⁵ - بن عتو، زهاد، المرجع السابق، ص ص 246-247.

⁶ - صغير، المرجع السابق، ص 148.

⁷ - بن عتو، زهاد، المرجع السابق، ص ص 246-247.

⁸ - قندوز، المرجع السابق، ص 272.

وفاة حوالي عشرين ألف وأعقبته حالة من الفوضى والنهب والسلب¹. بالإضافة إلى زلزال عامي 1723م و1724م الذي ضرب مدن الجزائر ومليانة وعنابة، وزلزال عام 1755م الذي أدى إلى تهدم العديد من المباني والمنشآت العمرانية، وصاحبه حرائق ببعض الأحياء، وتلت أعمال الفوضى والنهب والسلب وأيضا زلزال عام 1760م الذي ضرب مدينتي الجزائر والبليدة²، وزلزال وهران في عام 1790م الذي قضى على حوالي 7000 شخص، و4000 بقوا تحت الأنقاض كما هلك الحاكم الاسباني للمدينة Don Nicolas Garcia ولم يعثر على جثته³، كما شهد القرن 19م العديد من الزلازل أعوام 1810م و1818م و1825م الذي أهلك سبعة سبعة آلاف ضحية، وزلزال عام 1830م الذي ضرب مدينة الجزائر وخلف العديد من الخسائر⁴.

3. طرق التداوي في الجزائر أثناء العهد العثماني:

شهدت الجزائر خلال العهد العثماني تفشي العديد من الأوبئة بشكل متكرر خصوصا الطاعون الذي انتقل عبر التبادل التجاري البحري والبري مع المشرق والدولة العثمانية مما أدى إلى تدهور الوضع الصحي والاجتماعي⁵، والاجتماعي⁵، بسبب توافد التجار والبحارة والحجاج والطلبة من بلاد البلاد العربية إلى إيالة الجزائر، وقد ساعد على توطين هذه الأمراض انتشار المستنقعات بالسهول الساحلية وحول المدن الكبرى مثل عنابة وهران وعدم احترام السكان لقواعد النظافة الصحية⁶، وما زاد الأمر سوءاً فعلى سبيل المثال يشير هايدو بأن كثرة المراحيض في المنازل وغياب المجاري العامة التي تنقل القاذورات إلى البحر أو إلى أماكن أخرى، ساهمت في تفشي الأوبئة⁷، فضلاً عن ذلك لم يبد الحكام اهتماما بجوانب الحياة الصحية، وعدم إعطائها العناية اللائقة بها، فهم لم يتخذوا أي إجراء وقائي ضد الأمراض ولم يلجؤوا إلى نظام الحجر الصحي أو ما يُعرف بـ الكرنطينا⁸ دائما، بل اعتبروها أمرا طبيعيا وغضبا إلهيا¹.

¹ - صغير، المرجع السابق، ص ص 147-148.

² - بن عتو، زهاد، المرجع السابق، ص 648

³ - كاميلية دغموش، بن عمر حمدادو، "الوضع الصحي والمعيشي لبايلك الغرب الجزائري في أواخر العهد العثماني"، الحوار المتوسطي، مج:10، ع:02، 2019م، ص 341.

⁴ - بن عتو، زهاد، المرجع السابق، ص 648

⁵ - Fella Moussaoui El Kechai, **Santé et Population en Algérie: De la Période ottomane aux débuts de la Conquête Française (1515-1870)**, El Massadir, N°22, 2010, p 84-85.

⁶ - ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ العثماني، د/ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 88.

⁷ - De Haëdo, op.cit, p210.

⁸ - نظام الكرنطينا: مصطلح الحجر الصحي يقابله المصطلح الفرنسي La quarantaine ذو الأصل الإيطالي Quaranta giorno على اعتبار أن البندقية هي أول من طبق قواعده، ويعني أربعين يوم أي مدة حضانة المرض، أي Quarantaine de jours وفي الدولة العثمانية استخدم مصطلح الحجر وقد عُرف باللغة العثمانية بـ Usûl-i tahaffuz في حين أن المكان المخصص للحجر عرف بـ Tehaffuzhâne، ولا

ويُعود ذلك إلى الجهل بالعلوم الطبية العصرية والاعتماد على الطب التقليدي، وكذلك تم تسجيل نقص الصيدليات وقلة الأدوية المتواجدة فيها، إلى الحد الذي جعل بعض الأوربيين يجزمون بعدم وجود طبيب واحد بالجزائر، فعلى سبيل المثال يذكر الدبلوماسي الفرنسي لوجي دو تاسي Laugier de Tassy الذي زار الجزائر سنة 1724م، وذهب إلى أنّ المسلمين أهملوا العلوم والفنون إهمالاً كبيراً منذ قرون طويلة، رغم أنهم كانوا في زمنٍ من الأزمان من بين الشعوب القليلة التي تفوقت في دراسة الفلسفة والرياضيات والطب، وعبر عن ذلك بقوله: "... لم أرَ سوى عدد قليل من الأطباء يعرفون أسماء أمثال الرازي وابن رشد، ويكاد كتاب ديسقوريدوس الإسباني الترجمة يكون مرجعهم الوحيد، يستمتعون بالنظر إلى صورته أكثر من قراءة نصّه. أما طبيب الداوي، الذي يشغل أيضاً منصب رئيس الأطباء، فقد سألتني يوماً إن كان المسيحيون يعرفون أبقراط زاعماً أنه أول الأطباء العرب!... ومن هذا يتضح أن العلوم والفنون في هذا البلد في حالة انحطاط تام، فقلة من الأطباء الأكفاء تجعل أغلب الأمراض الخطيرة تنتهي بالموت أو تمتد طويلاً، لا سيما أنّ كثيراً من المسلمين يؤمنون بالقدر إلى حد رفضهم العلاج، بينما يسخر آخرون من الطب ويلجؤون إلى السحر والتمايم..."².

وبدوره يشير الدكتور الإنجليزي توماس شو Thomas Shaw (1692-1751م) الذي زار الجزائر بأنها تعاني من نقص تام في الأطباء الجيدين؛ إذ نادراً ما توجد أمراض خطيرة لا تنتهي بالموت، أو على الأقل لا تدوم مدة طويلة جداً. فكثير من المسلمين يؤمنون إيماناً مطلقاً بعقيدة القضاء والقدر، حتى إنهم يرفضون بإصرار كل النصائح ويأبون تناول أي نوع من الأدوية، بينما يسخر آخرون من المعالجة الطبية، ومنتظرون شفاءهم من الطبيعة وحدها أو يلجؤون إلى السحر والشعوذة، إضافة إلى الحمامات التي تُستعمل في جميع أنواع الأمراض³، وهو في

يختلف مفهوم الحجر الصحي في التاريخ عن مفهومه المعاصر، بحيث يختلف عن مفهوم العزل، ذلك أن العزل يتم اللجوء إليه للتعامل مع المرض الذي ثبتت إصابتهم بالأمراض المعدية مثل الطاعون فهم يشكلون خطراً على الآخرين، في حين أنّ الحجر الصحي يتم تطبيقه على الأشخاص الذين من الممكن أن تنتقل لهم العدوى بسبب مخالطتهم لأشخاص مصابين، أو بسبب تفشي المرض في منطقة معينة، وقد احتفظ الموروث النبوي بحديث النبي عليه الصلاة والسلام بخصوص الحجر الصحي، "إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها فراراً منه" رواه بخاري ومسلم، فقد دعا إلى عدم الذهاب أو الفرار من المناطق الموبوءة حتى لا تنتقل العدوى إلى المسافر إليها. للمزيد أنظر: هجيرة غراف، "السلطة العثمانية وآليات الوقاية من الأوبئة في إيالة الجزائر، الحجر الصحي أمودجا"، مجلة القرطاس للدراسات الفكرية والحضارية، مج: 07، ع: 02، 2020م، ص 151.

¹ - سعيدوني، البوعبدلي، المرجع السابق، ص 88.

² - Laugier De Tassy, **Histoire du royaume d'Alger, un diplomate France à Alger en 1724**, Henri Du Sauzet, Amsterdam, 1725, p77-79.

³ - Thomas Shaw, **Voyage dans la régence d'Alger, ou Description géographique, physique, philologique, etc. de cet état**, Traduit de l'anglais : J. Mac Carthy, Merlin Éditeur, Paris, 1830, pp 83-84.

ذلك يتفق مع القنصل الأمريكي وليام شالر William Shaler (1773-1833م) الذي ادعى بأن الجزائريين لا يعرفون الطب، وقد استقروا على التردد إلى المشعوذين وكتاب الحروز طلباً للعلاج¹.

وتذكر الدراسات بأن الأطباء الجزائريين على قلتهم كانوا يعتمدون على الترجمة الإسبانية لكتاب الطبيب الإغريقي ديوسكوريد Dioscoride²، ويشير شو Shaw في هذا الصدد أنّ السكان اعتمدوا على الطب التقليدي القائم على التداوي بالأعشاب فعاداً ما كان المريض يحضر مشروباً ساخناً من الأعشاب كدواء، وفي حالات الروماتيزم أو الالتهاب الصدري يقومون بكّي المريض بحديد محمي على موضع الألم ويُعاد ذلك حسب حدة المرض وقوة المريض. أما في حالة الحمّى، فيُعطى المريض مغلي نبتة تُسمى هنا لبان الأرض. أما جذر نبات بوستوم aristolochia rotunda فيُستعمل عادةً لعلاج المغص والأمراض الناتجة عن الغازات، بينما تُستخدم جذور بوكوكه arisarum لعلاج الحصى والرمل الكلوي³.

وفي نفس السياق؛ تشير بعض الدراسات بأن مهنة الطب أو الجراحة فكانت تمارس بشكل تقليدي في أزقة القصبة، وفي مدن أخرى من طرف بعض الحلاقين، الذين تتكون معداتهم الجراحية من بعض الأدوات البسيطة من بينها: قرن مصاص، قطعة من الحجر الجهنمي، قطعة من الوبر، مقصين ومشروط، موضوعة فوق حصيرة بشكل فوضوي دون مراعاة أدنى شروط النظافة، ويضاف أحياناً إلى هذه الأدوات كماشة لنزع الضرس، وسكين ذو شفرات قصيرة وحادة للغاية مخصص للكّي، بالإضافة إلى حلقات حديدية بأحجام مختلفة تستخدم لكّي الجراح الناتجة عن الأسلحة النارية⁴.

وقد اقتصر بعض الناس في تلك الفترة على أساليب علاج تقليدية مثل: الحجامة وممارسات خرافية كحمل التمام والاحتماء بالمرابطين⁵. وقد أشار القس بوارى إلى هذه السلوكيات أثناء زيارته للشرق الجزائري ومنطقة القالة؛ حيث ذكر أنه أثناء فحصه لبعض النساء اللواتي اندهشن من اللون الأخضر لقفازيه وظن أن لون يديه كذلك، ما اضطره لتوضيح فائدتهما، في دلالة على جهل السكان بالمعرفة الطبية نتيجة قلة احتكاكهم بالأطباء وندرة الأمراض بينهم. كما عبّر بوارى عن إعجابه بنمط حياتهم البسيط وغذائهم الطبيعي؛ إذ لا يأكلون الخبز ولا يطهون اللحوم ويكتفون بشرب الماء مما جعلهم أكثر صحة وقوة يعيشون في أكواخ من الأوراق أو مغارات

¹ - وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1924، تع: إسماعيل العربي، د/ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص 98.

² - صغير، المرجع السابق، ص 149.

³ - Shaw, op.cit, p 84.

⁴ - صغير، المرجع السابق، ص 149.

⁵ - De Tassy, op.cit, p 80.

صخرية تحميمهم من تقلبات الطقس¹، ومع ذلك حاولت السلطات العثمانية أحياناً الحد من انتشار الأمراض عبر إنشاء مراكز بدائية للعلاج مثل دار المرضى، لكن البنية التحتية الصحية ظلت محدودة وضعيفة².

بالإضافة إلى ذلك؛ أشار الرحالة الألماني يوهان أرنست هابنسترايت Johann Ernst Hebenstreit (1703-1757م) بأن السكان المحليين في الجزائر كانوا على دراية بأهمية الطب، وأظهروا احتراماً للأطباء والمعالجين بالأعشاب، وقدروا مهنتهم وعبر عن ذلك بقوله: "...الطبيب يحظى لديهم بكل احترام وتقدير لمهنته هذه..."³، كما برز العديد من الأطباء الجزائريين الذين ساهموا في تطوير الممارسة الطبية خلافاً لما أرادت المصادر الأجنبية المتحيزة الإشارة إليه، فعلى سبيل المثال سطع نجم الطبيب عبد الرزاق ابن حمادوش (1695-1780م) الذي اعتنى بالطب وهو لا يزال شاباً، وقد كتب عن نفسه بأنه أصبح طبيباً وصيدلياً وعشاباً، وكان شديد الحرص على الصيدلة، فقرأ كتباً كثيرة في هذا المجال، كما ترجم عدداً من الأطباء أمثال الرازي والفارابي، والبيروني، وابن سينا، وابن البيطار وغيرهم، كما افتخر بأن الأعشاب التي قيدها في تأليفه كلها معروفة لديه، وتبرز إسهاماته في الطب الجزائري إبان العهد العثماني في تلك الكتب والمصنفات الكثيرة التي خلفها ومنها: الجوهر المكنون في بحر القانون، كتاب كشف الرموز الذي ذكر فيه منافع الأعشاب وغيرها⁴.

4. توافد الأطباء الأجانب إلى الجزائر ودوافعهم:

شهدت الجزائر خلال العهد العثماني توافد عدد من الأطباء الأجانب خاصةً من أوروبا، بسبب موقعها الاستراتيجي واتصالها الدائم بموانئ البحر الأبيض المتوسط. فقد استعان الأتراك العثمانيون بمؤلاء الأطباء في معالجة الجنود والبحارة في الأسطول البحري، وكذلك في خدمة الطبقة الحاكمة في العاصمة الجزائر. ومعظمهم وفدوا إما لأسباب مهنية أو دبلوماسية، حاملين معهم معارف طبية حديثة، ساهمت في تطوير الممارسات الصحية المحلية إلى حدٍّ ما، رغم محدودية انتشارها بين عامة الناس بسبب الطابع المحافظ للمجتمع الجزائري آنذاك، وتشير بعض الدراسات إلى أنّ الباشوات والبايات لم يكونوا مبالين بالحالة الصحية للسكان، بحيث كان رد الفعل المتمثل في الهروب شائعاً فعلى سبيل المثال فرّ الباي عثمان من وهران بسبب طاعون 1794م الذي اجتاحت وهران، أما عائلته وحاشيته فلم يعودوا إلى القصر إلا بعد ثلاثة أشهر، وغالباً كانّ الحكام يجلبون الأطباء لأنفسهم ويؤمنون

¹ - صغير، المرجع السابق، ص ص 149-150.

² - Moussaoui El Kechai, op.cit, p 84-85.

³ - ج، أو، هابنسترايت، رحلة العالم الماني: ج. أوهابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ/1732م)، تر، تق، تع: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008م، ص ص 56-57.

⁴ - عز الدين بن سفي، "منهج ابن حمادوش الجزائري في علوم الطب والصيدلة"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج: 11، ع 02، 2020م، ص ص 58-59.

بقيمة الطبيب الأوروبي، فكانوا في غالب الأحيان لا يهتمون بصحة السكان عموماً تاركين العامة للطب التقليدي¹.

في نفس السياق؛ تعود أصول أغلب الأطباء الذين وفدوا إلى إيالة الجزائر إلى بلدان أوروبية مختلفة، من بينها إنجلترا، وهولندا، والدنمارك، وفرنسا، وإسبانيا التي كانت تخضع آنذاك لسلطة مدريد. وقد كان يُرسل هؤلاء الأطباء للعمل في المستشفيات المسيحية المقامة في الجزائر لمدة عامين، بعد أن يجتازوا امتحاناً تأهيلياً تشرف عليه هيئة الثالوث المقدس لافتداء الأسرى² التي كانت تتولى تركيتهم قبل ممارسة مهنتهم الطبية هناك، وغالباً ما كان هؤلاء الأطباء من بين الأسرى الأوروبيين الذين يقع القبض عليهم خلال العمليات البحرية التي كان يقوم بها البحارة الجزائريون ضد السفن الأوروبية؛ حيث كان يتم بيعهم كأسرى أو يُفتدى بعضهم بمبالغ مالية معتبرة، ومن أبرز الأطباء الأسرى نجد: ميلشيو غيلاندين، مانويل موريللو، الجراح الألماني سيمون بفايفر وغيرهم³.

وكما تمت الإشارة سابقاً، قام حكام الجزائر من البايات والدايات وكبار المسؤولين باتخاذ أطباء أوروبيين أكفاء لهم كلما سمحت الفرصة، فعلى سبيل المثال أتى باي قسنطينة الباي قليان حسين بوكمية (1713-1736م) بطبيب هولندي يسمى سانسون Sanson ليشراف على صحته عام 1713م، وبدوره قام الداوي علي خوجة (1817-1818م) بالطبيب الإسباني خوان فرنندز دي لاس هراس Dr juan de las Heras fermangez بعد اشتداد وطأة الطاعون في سنة 1818م. زيادة على ذلك وُجد في إيالة الجزائر العديد من الأطباء الأوروبيين الأحرار الذين دخلوا في خدمة كبار رجال الإيالة مقابل مبالغ مالية طائلة، كما هـ والحال بالنسبة للطبيب الألماني هابنسترايت، فنظراً لقلّة المتطبين بالجزائر وثق الجزائريون حكاماً ومحكومين بالأطباء الأوروبيين الذين اكتسبوا احتراماً وتقديراً لمعارفهم الطبية، وذلك ما أكده هابنسترايت بقوله بأن الجزائريين يحملون نظرة جيدة عن كفاءة الأطباء النصارى في هذا الشأن، ويدعوهم بالعلماء تعبيراً عن التقدير الخاص الذي يحضون به لديهم⁴.

¹ - دغموش، حمدادو، المرجع السابق، ص 345.

² - هيئة الثالوث المقدس: تأسس حسب بعض المصادر الأجنبية من طرف شخصيتين دينيتين هما جون دوماتا Matha De Jean وفليكس دوفالوا Valois De Félix وتنحدر أصولهما من عائلات فرنسية، وقد رأى أحدهما حلماً يتمثل في أن ملكاً يحمل صليباً وعلى جانبه يجلس أسيرين أحدهما مسيحي والآخر مسلم، وفسر هذا الحلم على أن الله يريد له خدمة المسيحية لذلك أخذت الرؤية اهتماماً كبيراً لدرجة أنها وصلت إلى بابا روما بعد ذهابها لرؤيته حول تفسير هذا الحلم سنة 1198م، ليعلن فيما بعد عن إنشاء تنظيم الثالوث المقدس الذي يمثل الأب والابن وروح القدس. للمزيد أنظر: زينب إخلف، "الممارسة الدينية والطقوس الاحتفالية للأسرى المسيحيين بمدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية (1519-1830)"، مجلة عصور جديدة، مج: 13، ع: 02، 1445هـ/ 2023م، ص 431.

³ - بوحجرة، المرجع السابق، ص 32 وما بعدها.

⁴ - آل سيد الشيخ، المرجع السابق، ص 98.

وتجدر الإشارة بأن؛ هؤلاء الأوروبيون كانوا يستغلون ثقة الأهالي واحترامهم للأطباء في تسيير مصالحهم في المنطقة، سواء في مواصلة رحلتهم الطبيعية كما هو الحال بالنسبة لديفتان، أو لتفادي العقاب والمعاملة السيئة إذا كانوا من فئة الأسرى، نظراً لامتيازات التي يحظون بها مقارنة بباقي الأسرى كونهم أطباء، وهو ما فعله ضابط فرنسي أثناء فترة أسره لدى بعض القبائل بعدما رأوه يقوم بمعالجة أحد زملاءه المصابين، والملاحظ أنّ إقبال الجزائريين على الأطباء الأوروبيين ظل مستمرا إلى غاية السنوات الأولى من الاحتلال فعلية الاحتلال الفرنسي، كما لم تنقطع ثقة السكان بالأوروبيين، وهذا ما يكشفه أحد الأطباء الفرنسيين الذي قام برحلة في بعض الأرياف المجاورة لمدينة الجزائر أين أقبل عليه سكانها ليكشف عنهم، فلاحظ عليهم الجدية والحرص في الأخذ بنصائحه الطبية¹.

5. اسهامات الأطباء الأجانب في تطوير الممارسة الطبية في الجزائر أثناء العهد العثماني:

شهدت الجزائر عبر تاريخها موجات متكررة من الأوبئة والأمراض التي انتقلت إليها عن طريق الوافدين برّاً وبحراً، مما جعلها عرضة لجائحات متتالية استدعت من السلطات والمجتمع اتخاذ تدابير وإجراءات لمواجهةها والحد من آثارها. وقد ساهم الأطباء الأجانب بدور مهم في تطوير الممارسة الطبية والارتقاء بمستواها خلال العهد العثماني. ومع ذلك، ومع بداية الاحتلال الفرنسي سنة 1830م، ردد الأطباء والضباط الفرنسيون مقولة تدهور الطب العربي والإسلامي في ظل الحكم العثماني، وهي أطروحة ذات خلفية سياسية أكثر منها علمية. وقد ركزت ادعاءاتهم على ضعف المؤسسات الصحية في المدينة؛ إذ لم يكن هناك سوى عدد محدود من المرافق المخصصة لرعاية المرضى والمسنين وبعض الفئات الاجتماعية كالأسرى المسيحيين والعسكريين المتقاعدين، متجاهلة الدور الحيوي الذي قامت به الصدقات والأوقاف الخيرية في دعم الفئات الهشة، مما جعلها عاجزة عن إدراك طبيعة الممارسات الصحية المجتمعية في سياقها الاجتماعي والثقافي الحقيقي².

وغالباً تشير الكتابات الغربية إلى انعدام المستشفيات بالجزائر، لذلك أولت الدول الأوروبية اهتماماً كبيراً برعاياها خاصة الأسرى، فقام الآباء الثلاثيون بتأسيس مستشفى سنة 1531م بخمسة أسرة، ثم جرى تطويره سنة 1612م بأن أضيفت إليه ثلاثة أسرة³، كما أقامت الحكومة الإسبانية مستشفى للاعتناء والتخفيف من معاناة

¹ - صغير، المرجع السابق، ص ص 150-151.

² - Hannah-Louise Clark, **The Islamic origins of the French colonial welfare state: hospital finance in Algeria**, *European Review of History: Revue européenne d'histoire*, Vol. 28, 2021, p 693.

³ - نجد عائشة، الأسرى الأوروبيون في مدينة الجزائر ودورهم في العلاقات بين الجزائر ودول الحوض الغربي للمتوسط خلال القرنين السادس والسابع عشر للميلاد، مذكرة شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، المركز الجامعي غرداية، 1432-1433هـ / 2011-2012م، ص 52.

الأسرى المسيحيين، والذي كان مُسيراً من قبل رجال الدين وقد ضم بعض الأطباء، والجراحين الأوروبيين وحظي بحماية حكام الجزائر، ويرجع فاليار VALLIERE ذلك إلى حاجة الإيالة له، وكذبك السكان الذين كانوا يترددون عليه. ويذكر باربروجير في هذا الصدد أن أول مشفى أسس بها كان سنة 1551م على يد الأب الإسباني سيستيان ديپور Sébastien Duport وأطلق عليه تسمية حمام المرضى Bagne des malades لفائدة الأسرى المسيحيين وجندوا لهذه الغاية بعض الأطباء الأوروبيين¹.

وتجدر الإشارة بأنّ؛ هذا المستشفى خضع لإشراف متصرف ويساعده فيه أحد الآباء المنتمين لسلك رهبنة عتق الأسرى، وهو يقوم بأعمال خير جمّة لفائدة جميع الأسرى، ويلحق به جراح يقومون بمعالجة الأسرى، وقد دأبت القنصليات الأوروبية والإرساليات الدينية على تقديم الخدمات الصحية لرعاياها سواء المدنيين أو الأسرى، ويذكر أن رجال الدين كانوا من العارفين بأمور الطب والصيدلة فكانوا يقومون بإنشاء البيمارستان والمستوصفات الخيرية تتلقى المساعدة من حكوماتها حتى داخل السجون²، وقد أُعيد تجديده عام 1612م وأصبح يتلقى إعانة سنوية من الحكومة الإسبانية بلغت في القرن 18 حوالي 10000 فرنك، كما أنشأ الراهب يقراريدو عام 1662م مستشفى داخل سجون الجنيّة بالقرب من باب عزون، ومستشفى لازاريسست الذي خُصص لبعض الإعانات المالية وكذلك المستشفى الفرنسي بالقرب من القالة الذي تشرف عليه الوكالة التجارية الفرنسية³، وفي سنة 1775م، قام أحد الآباء بإنشاء المستشفى الإسباني، وكان يدار من قبل رجل دين تابع لمنظمة الثالوث المقدس لافتداء الأسرى أو منظمة سيدة الرحمة، كما أسست مستشفيات أخرى خلال القرن 18م والتي كانت تحت إشراف المنظمات الدينية المسيحية⁴.

وقد شكلت الحمامات المعدنية والمنابع المائية أحد أهم وسائل العلاج والاستشفاء لدى الجزائريين، خصوصاً من الأمراض الجلدية وأمراض المفاصل، حيث وجدت العديد من الحمامات والينابيع المخصصة لذلك، كالبركة المنبعثة من إحدى العيون الموجودة بالقرب ضريح من سيدي ميمون بمدينة قسنطينة، والتي كانت مقصداً ومزاراً للناس لعلاج أمراض الروماتيزم كما كانت تساعد في التام الجراح⁵. ومن بين الإجراءات التي اتخذها حكام الجزائر العثمانيون لمواجهة هذه الأوبئة المعدية تطبيق نظام الحجر الصحي، كما فعل الداوي إبراهيم باشا سنة 1741م

¹ - صغير، المرجع السابق، ص 151 ص 150-151.

² - فاطمة الزهراء تدرس، أم الخير عثمانى، "دراسة تحليلية لناصر الدين سعيدوني في رحلة الطبيب وعالم النبات الألماني ج. أو. هابنسترايت (Hebenstreit.E.J) إلى الجزائر عام 1732م"، مجلة الونشريس للدراسات التاريخية، مج: 01، ع: 02، 2022م، ص 132.

³ - ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط02، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ص 125.

⁴ - بلقاسم قرياش، "بانياوات الأسرى في الجزائر خلال العهد العثماني (1519-1830م)"، دراسات تاريخية، ع: 01، 2013م، ص 135.

⁵ - صغير، المرجع السابق، ص 153.

عند تفشي الطاعون؛ حيث عزل نفسه في قصره، وفرض الحجر على السفينة القادمة من الإسكندرية سنة 1743م، التي كانت تقلّ حجاجًا اشتبه بإصابتهم بالوباء، ومنعهم من دخول المدينة، واحتُجزوا مدة خمسة عشر يومًا قبل السماح لهم بالدخول بعد التأكد من سلامتهم. كما فرض صالح باي قسنطينة سنة 1787م أو 1789م حجرًا صحيًا حول مدينة عنابة ومحيطها لمنع انتقال عدوى الطاعون إلى قسنطينة. وفي أواخر العهد العثماني، حرص حسين داي على تطبيق إجراءات الحجر على السفن القادمة إلى الجزائر، خصوصًا عند الاشتباه في حملها للأوبئة¹.

وفي نفس السياق؛ ذكر ابن حمادوش أنّ السفينة القادمة من الإسكندرية التي كانت مليئة بالحجاج مُنعت من الدخول، حتى تم حجرهم مدة زمنية معينة إلى غاية التأكد من سلامتهم جميعاً وعبر عن ذلك بقوله: "...وفي ثالث رجب الموافق آخر يوم من يوليه قدم علينا مركب من اسكندرية بالحجاج، وفيه الوباء فمنعهم الباشا الدخول حمية أن يقوم ممرض على مصحح إلى ثامن عشرة موافق خامس عشر أوغشت، أذن لهم في الدخول بعد تحقق سلامتهم من المرض المذكور..."²، وهي الإجراءات نفسها التي كانت تطبقها البلدان المجاورة، كتونس التي كانت تمنع دخول السفن إلا بعد تامة الحجر الصحي، وقد أخذت هذه الطريقة بواسطة الأطباء الأجانب الذين خبروا هذه الطريقة في دولهم، فقد عُرفت أوروبا بكثرة الأوبئة عبر مختلف العصور فكانت تضع مكان مخصص للحجر، وألزمت كل الداخلين البقاء فيه، حتى تتأكد من سلامتهم³.

إضافةً إلى هذا كل في المدينة التي يكون بها الوباء يمنع الدخول إليها أو الخروج منها، الغرض التزود بالقوت ولكن بالرغم من ذلك كان المرض ينتشر لأن الوافدين كانوا بكثرة، غير أنّ هذه الإجراءات الوقائية لم تكن تُحترم دائماً؛ إذ كان يُضطر أحياناً إلى رفع الحجر في حالات الأزمات الداخلية الناتجة عن نقص المواد الغذائية الأساسية، أو عند تعرض البلاد لتهديد خارجي، فكان يُسمح للسفن المحملة بالبضائع والجنود بالرسو في الموانئ الجزائرية، مما ساهم في تجدد تفشي الأوبئة، وإلى جانب إجراءات السلطة، لجأ بعض الأهالي إلى تطبيق العزل الصحي بأنفسهم، فردياً أو جماعياً⁴، كما دعا حمدان بن عثمان خوجة (1773-1842م) إلى الالتزام

¹ - Guedim, op.cit, p380.

² - عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تق، نع: أبو القاس سعد الله، د/ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983م، ص 121.

³ - Guedim, op.cit, p380.

⁴ - عبد الرحمن قدوري وآخرون، دراسة إحصائية للأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني 1552-1822م - وباء الطاعون أمودجا، ضمن كتاب: الأوبئة عبر التاريخ، د/ط، دار خيال للنشر والترجمة، برج بوعريبيج، الجزائر، 2021م، ص 148.

بالإجراءات الوقائية لتجنّب العدوى، وترك مؤلفه الشهير إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء، الذي تطرق فيه إلى الوباء والطاعون وكيفية الوقاية منه¹.

وتجدر الإشارة بأنّ؛ السلطة العثمانية بدورها كانت ترغب في غالب الأحيان في إبقاء أمر انتشار الوباء في الجزائر سراً، وبعيدا عن مسامع الدول الأوروبية، وهذا خوفاً من اتخاذ هذه الأخيرة إجراءات تمنع التبادل التجاري مع الجزائر خوفاً من انتقال الوباء إليها، فحاول الدايات التكتّم عن الخسائر وشدة الوباء في إيالة كما حدث سنة 1753م، حتى لا تتوقف المبادلات التجارية². ومع بداية الاحتلال الفرنسي فرضت السلطات الاستعمارية نظام الحجر الصحي الإجباري على السفن الأجنبية - خاصةً تلك غير الحاملة لوثائق صحية "patentes de santé" تثبت خلوها من العدوى - لحماية الجيش والمستوطنين الفرنسيين، بينما ظلّ الجزائريون محرومين من الرعاية الصحية في المناطق النائية. ورغم ادعاء فرنسا الطابع الإنساني لسياساتها، فإن أهدافها كانت استعمارية دعائية تهدف إلى إخضاع السكان عبر ما سُمّي بالاندماج الصحي، وقد رفض الأهالي هذه السياسة بسبب انعدام الثقة في المستعمر، مفضلين الطب الشعبي التقليدي. وأدّت هذه الأوضاع إلى استمرار انتشار الأوبئة وظهور أمراض جديدة مثل الكوليرا والتيفوس، إضافة إلى مجاعات كارثية خلّفت آثاراً ديموغرافية واقتصادية خطيرة، ورغم غياب الإحصاءات الدقيقة، تظل دراسة هذه المرحلة ضرورية لفهم التحولات الصحية والاجتماعية بين العهدين العثماني والاستعماري³.

خاتمة:

انطلاقاً مما سبق ذكره؛ يمكن القول بأنّ الجزائر خلال العهد العثماني، عرفت سلسلة من الأوبئة والأمراض الفتاكة ولعلّ أهمها وباء الطاعون والجذري بالإضافة إلى الكوارث الطبيعية كالزلازل والفيضانات والمجاعات التي شكّلت تحدياً متكرراً للسلطة العثمانية والسكان المحليين على حد سواء؛ إذ لم تقتصر آثارها على المجال الصحي فحسب، بل امتدت لتؤثر في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وقد أظهرت تلك الأزمات مدى محدودية الإمكانيات الطبية التقليدية المعتمدة على الممارسات الشعبية والعلاج بالحجامة والأعشاب، مقابل الحاجة المتزايدة إلى أساليب علاجية أكثر علمية وتنظيمًا، وهذا ما تطرق إليه العديد الكُتاب الغربيين وفي مقدمتهم ديغو دي هايدو والدكتور شاو، ولوجي دي تاسي ووليام شالر الذين ادعوا بأنّ الممارسة الطبية في إيالة الجزائر كانت تعتمد على التداوي بالنباتات واللجوء إلى المشعوذين والسحرة.

¹ - Guedim, op.cit, p380.

² - سعيدي، المرجع السابق، ص 432.

³ - Moussaoui El Kechai, op.cit, p 85.

ومع ذلك تعددت طرق الممارسة الطبية في الجزائر العثمانية، فالملاحظ أن السلطة لم تعتمد فقط على العنصر المحلي، بل استقدمت الأطباء الأجانب سواء كانوا من الأسرى الأوروبيين أو الموفدين من قبل البعثات الدينية والطبية وحتى الأحرار وقام الدايات والبابات بتقريبهم، وبدورهم كان لهم اسهام كبير في إدخال معارف طبية جديدة وأساليب حديثة في التشخيص والعلاج سواء من خلال المستشفيات الأجنبية أو الجهود الفردية كما هو الحال بالنسبة للعالم الألماني هابنسترايت والجراح سيمون بفايفر، مما ساهم تدريجيًا في تطور الممارسة الطبية بالإيالة وتهيئة الأرضية لمرحلة التحول التي ستعرفها البلاد مع بدايات العهد الاستعماري الفرنسي، ومع ذلك فإن هذا لا يُلغي حقيقة أنّ الجزائر أنجبت نخبة من الأطباء المحليين الذين تميّزوا بكفاءتهم ومهارتهم في مجال الطب، واستطاعوا الجمع بين المعارف الطبية العربية والإسلامية وبعض التأثيرات الغربية الوافدة، ويُعد عبد الرزاق بن حمادوش أحد أبرز هؤلاء؛ إذ خلّد التاريخ اسمه بفضل مؤلفاته التي تناولت الأمراض والأوبئة وطرق الوقاية والعلاج منها، مما يعكس حيوية البيئة العلمية في الجزائر العثمانية وقدرتها على الإسهام في المشهد الطبي آنذاك.

قائمة المصادر والمراجع:

- إخلف زينب، "الممارسة الدينية والطقوس الاحتفالية للأسرى المسيحيين بمدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية (1519-1830)"، مجلة عصور جديدة، مج: 13، ع: 02، 1445هـ/ 2023م.
- آل سيد الشيخ سعاد، "الأوضاع الصحية وانعكاساتها على المجتمع الريفي اجتماعيا واقتصاديا بالجزائر العثمانية"، مجلة دراسات تاريخية، مج: 09، ع: 01، 2021م.
- بن جبور محمد، "الوضع الصحي بالجزائر في أواخر العهد العثماني"، المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، مج: 06، ع: 02، 2014م.
- بن حمادوش الجزائري عبد الرزاق، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تق، تع: أبو القاس سعد الله، د/ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983م.
- بن سيفي عز الدين، "منهج ابن حمادوش الجزائري في علوم الطب والصيدلة"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج: 11، ع: 02، 2020م.
- بوحجرة عثمان، الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني 1519-1830م (مقاربة اجتماعية)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران 01، 2014-2015م.

- بومنيير سهام، مولوة أمينة، الأوبئة في الدولة العثمانية خلال القرنين 18م و 19م من الأزمة إلى المواجهة، ضمن كتاب: الأوبئة عبر التاريخ، د/ط، دار خيال للنشر والترجمة، برج بوعرييج، الجزائر، 2021م.
- تدرس فاطمة الزهراء، عثمانى أم الخير، "دراسة تحليلية لناصر الدين سعيدوني في رحلة الطبيب وعالم النبات الألماني ج. أو. هابنسترايت (Hebenstreit.E.J) إلى الجزائر عام 1732م"، مجلة الونشريس للدراسات التاريخية، مج: 01، ع: 02، 2022م.
- جليل بن عتو، قوراري زهاد، "الأوضاع المعيشية والصحية والديموغرافية في الجزائر العثمانية من خلال المصادر الغربية"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج: 13، ع: 01، 2022م.
- دغموش كاميلية، حمدادو بن عمر، "الوضع الصحي والمعيشي لبابلك الغرب الجزائري في أواخر العهد العثماني"، الحوار المتوسطي، مج: 10، ع: 02، 2019م.
- سعيدوني ناصر الدين، البوعبدلي المهدي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، د/ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط02، دار البصائر، الجزائر، 2009م.
- سعيدي خير الدين، الأوبئة بالجزائر العثمانية خلال القرن الثامن عشر والثالث الأول من القرن التاسع عشر، ط01، مركز التاريخ العربي للنشر، إسطنبول، تركيا، 1441هـ / 2020م.
- شالر وليام، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1924، تع: إسماعيل العربي، د/ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
- صغير عبلة، الوضع الصحي والممارسات الطبية في الجزائر العثمانية: دراسة تاريخية على ضوء الكتابات الغربية، ضمن: الطب والخدمات الصحية بالعالم الإسلامي عبر العصور، ج: 02، المركز الديمقراطي العربي، برلين، ألمانيا، 2023م.
- عائشة مُجد، الأسرى الأوروبيون في مدينة الجزائر ودورهم في العلاقات بين الجزائر ودول الحوض الغربي للمتوسط خلال القرنين السادس والسابع عشر للميلاد، مذكرة شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، المركز الجامعي غرداية، 1432-1433هـ / 2011-2012م.
- العنتزي صالح، مجاعات قسنطينة، تح: رابح بونار، د/ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1394هـ / 1974م.

- غراف هجيرة، "السلطة العثمانية وآليات الوقاية من الأوبئة في إيالة الجزائر، الحجر الصحي نموذجاً"، مجلة القرطاس للدراسات الفكرية والحضارية، مج: 07، ع: 02، 2020م.
- غطاس عائشة، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقارنة اجتماعية – اقتصادية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، ج01، جامعة الجزائر، الجزائر، 200-2001م.
- قدوري عبد الرحمن وآخرون، دراسة إحصائية للأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني 1552م – 1822م – وباء الطاعون نموذجاً، ضمن كتاب: الأوبئة عبر التاريخ، د/ط، دار خيال للنشر والترجمة، برج بوعرييج، الجزائر، 2021م.
- قرباش بلقاسم، "بانياوات الأسرى في الجزائر خلال العهد العثماني (1519-1830م)"، دراسات تاريخية، ع: 01، 2013م.
- قندوز عبد القادر، "الوضع الصحي لسكان الجزائر في العهد العثماني"، مجلة الخلدونية، مج: 07، ع: 01، 2014م.
- مُجدد عبد الكريم، "تطور الممارسة الطبية وأشهر الأطباء المحليين والأجانب 1830-1954م"، عصور، مج: 22، ع: 02، 2023م.
- هابنسترايت ج، أو، رحلة العالم المالني: ج. أوهابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ/1732م)، تر، تق، تع: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008م.

- **De Haëdo Don Diego, Topographie et histoire générale d'Alger**, Traduit de l'espagnol par: Dr. Monnereau, A. Berbrugger, Éditions Bouchène, Algérie, 1870.
- De Tassy Laugier, **Histoire du royaume d'Alger, un diplomate France à Alger en 1724**, Henri Du Sauzet, Amsterdam, 1725.
- Delmas De Grammont Henri, **Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830)**, Ernest Leroux Editeur, Paris, France, 1887.
- Guedim Tayeb, **History of epidemics and preventive medicine in Algeria during the modern and contemporary period: Infectious diseases and quarantine as a model**, International Journal of Health Sciences, 8, 2024.
- Louise Clark -Hannah, **The Islamic origins of the French colonial welfare state: hospital finance in Algeria**, European Review of History: Revue européenne d'histoire, Vol. 28, 2021.

- Moussaoui El Kechai Fella, **Santé et Population en Algérie: De la Période ottomane aux débuts de la Conquête Française (1515-1870)**, El Massadir, N°22, 2010.
- Shaw Thomas, **Voyage dans la régence d'Alger, ou Description géographique, physique, philologique, etc. de cet état**, Traduit de l'anglais : J. Mac Carthy, Merlin Éditeur, Paris, 1830.